

نصوص مختارة في علم النفس

سننشر تباعاً في هذا الباب نصوصاً مختارة من مؤلفات كبار علماء النفس ، بحيث تتناول نصوص كل مجموعة موضوعاً واحداً من موضوعات علم النفس المختلفة .
وسنشير بعلامة * إلى المصطلحات المذكورة في « باب التعريفات » .

لمحة في تاريخ علم النفس (١)

كانت المسائل التي نطلق عليها اليوم اسم المسائل النفسانية — أو كان أهمها على الأقل — من الأمور التي تدخل في نطاق التفكير الفلسفي . وفي مؤلفات كثير من الفلاسفة القدامى والمحدثين أمثلة كثيرة لذلك . ومن الخير أن نضيف إليها ما تحويه كتب الدين والأخلاق والتاريخ والأدب مما يقرب من ذلك . ورغم هذا فإن علم النفس — باعتباره مجموعة منفردة من الدراسات لها اسم خاص (٢) — لا يرتد أصله إلا إلى عهد قريب نوعاً ما . ويمكن أن يرد إلى « كرسطيان ولف » Wolff مؤلف « علم النفس التجريبي » (١٧٣٢) و « علم النفس العقلي » (١٧٣٤) . وبقي هذا الاسم بالغ الندرة خلال القرن الثامن عشر ، رغم كل المؤلفات التي نشرت في ذلك العهد عن الفكر وخاصة عن تكوين الأفكار ؛ غير أن « كانت » Kant استخدم هذا الاسم ، الأمر الذي أجدى كثيراً في انتشاره . وكثر استعماله في فرنسا بفضل « مين دي بيران » Maine de Biran و « المدرسة الانتقائية » خاصة .

على أن علم النفس بقي وثيق الصلة بالفلسفة حتى أن « أوجست كونت » A. Comte في رفضه التسليم بالفلسفة بقضها وقضيصها ، أنكر إمكان وجود علم خاص للنفس ، قائم بنفسه ، متميز عن علم الحياة وعلم الاجتماع .

أما تاريخ علم النفس في القرن التاسع عشر فقد كانت تسيطر عليه في الواقع نزعتان كانتا تتحالفان أحياناً وتتعارضان أحياناً أخرى وهما : ١ — جهاد علم النفس للانفصال عن الفلسفة والوصول إلى مرتبة « العلم الطبيعي » فكان هذا محاولة في سبيل التحرر والاستقلال ، غير أنه كثيراً ما كان يختلط بها ميل إلى إخضاع علم النفس لعلم وظائف الأعضاء (لوتسه ، مودسلي ، فوندت ، Lotze. Maudsley, Wundt)

André Lalande. La psychologie, ses divers objets et ses méthodes. (١)
in Nouveau Traité de Psychologie par Georges Dumas, T. I p. 367 — 369.
Paris 1930. Alcan.
مترجم هذا النص الأستاذ إسحق رمزي

(٢) اتخذ جو كلينيوس Goclenius الأستاذ بجامعة ماربورج « علم النفس » عنواناً لأحد مؤلفاته (١٥٩٠)

وزيادة على ذلك فإنه لما كانت الفلسفة التي يراد التحرر منها هي على الغالب فلسفة تقليدية : إنثنية أو روحية ، فإن هذه الحركة كثيراً ما أدت إلى أن تقوم البحوث النفسانية على فكرة وجدانية أو مادية عن العالم ، أى على شكل آخر من أشكال الفلسفة .

٢ — جهاد لحصول علم النفس على ميدان ومنهج ومبادئ لا تخرجه من مجموعة العلوم الفلسفية حسب ، بل لا تختلط بمنهج أى علم آخر أو مبادئه ، ولا تتضمن التسليم إلا بالفروض العامة للمنهج التجريبي أو التحليلي حتى تضعه — في إيجاز — بالنسبة إلى علم الحياة في نفس المرتبة التي يوضع فيها هذا العلم بالنسبة إلى علم الطبيعة ، ويوجد أوضح تعبير عن هذا في كتاب المنطق لجون ستوارت ميل J. S. Mill . في الفصول الخاصة بالعلوم الإنسانية ، كما نجد ذلك الرأي أيضاً في المقدمة المشهورة لكتاب « ريبو » Ribot « علم النفس الإنجليزى المعاصر » (١٨٧٠) وفي كتاب « الذكاء » الذى ألفه « تين » Taine في العام نفسه ، وفي كثير من الكتب التى نشرت بعد ذلك . ونما « علم النفس المستقل على أشكال مختلفة منذ ذلك العهد بسرعة فائقة ، وتعددت المجالات الخاصة بعلم النفس تماماً وتلك التى تهتم خاصة بالمسائل النفسانية (١) . . .

وفي سنة ١٨٧٨ أنشأ فوندت أول معمل لعلم النفس التجريبي الذى تعددت معاملته منذ ذلك الحين وخاصة في ألمانيا وأمريكا (٢) . وعقدت المؤتمرات الدولية لعلم النفس منذ سنة ١٨٨٩ وقامت الأسباب التى دعت إلى عقدتها على الصبغة العلمية الاستقلالية التى وصل إليها علم النفس . وأطرى « أوخو روقز » Ochorowicz منذ سنة ١٨٨١ عقد هذه المؤتمرات وكتب لتأييد رأيه يقول : « لم يعد علم النفس علماً فلسفياً . وهذا نبأ يمكن أن نقول عنه حقاً لأنه سر الفلسفة المعاصرة الشائع إذ أن الجميع يسلمون به ، رغم أنه لا يود المناادة به سوى نفر قليل من الفلاسفة » . ثم نجد تدشين هذه الحركة الانفصالية في عنوان القاموس العظيم في « الفلسفة وعلم النفس » الذى نشره « بولدوين » Baldwin سنة ١٩٠١ ، والدروس الأولية في علم النفس والفلسفة لمؤلفه « أبل راي » Abel Rey . وكتب هذا الأخير في مقدمة الطبعة الأولى من كتابه (١٩٠٣) يقول : « تتفق اليوم كل العقول الراجعة على الاعتراف بأن علم النفس علم ، حذوه في ذلك حذو علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء . فهو يستخدم من المناهج ما لا تقتصر على كونها تفكيراً منطقياً حسب بل هي تؤدي أيضاً إلى يقين حقيقى . وإذا كان علم النفس يثير مشكلات فلسفية أكثر مما يثيره غيره من العلوم ، فإن هذه المشكلات لا تدخل في نطاقه ، بل هي خاصة بما بعد الطبيعة » .

Annales Médico-psychologiques, 1843

Revue Philosophique, 1876 ; Mind, 1876

Philosophische Studien, 1881 ; Zeitschrift für Psychologie

American Journal of Psychology, 1887 ; Psychological Review, 1894

Année Psychologique, 1895 ; Archives de Psychologie 1901 ; Journal de Psychologie 1904 ; British Journal of Psychology, 1904 ; etc.

يبلغ الآن عدد مجلات علم النفس العامة والخاصة حوالى المائة . راجع :

Hans Henning. Psychologie der Gegenwart, p. 156-161. Leipzig

1931 (المترجم)

(٢) يوجد في مصر معملان لعلم النفس ، أحدهما في كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، والثاني في معهد التربية العالى للمعلمين . (المترجم) .

(١) موضوع علم النفس

من البين أن البحث السيكولوجي ليس غريزة * من الغرائز؛ فلا يمكن مباشرته منذ الولادة. والاستبطان * وسيلته الأساسية ، ولا بد فيه ، كما في معظم البحوث الأخرى ، من قدر معين من التمرين. ويحسن قبل الشروع في دراسة تفصيلية أن لا تقوم بمعاينة مبدئية لميدان علم النفس وقد يكون أحسن بيان لموضوع علم النفس بواسطة مثال : فالقارئ إذ يقرأ هذه الكلمات سوف يوافق على أن أموراً عدة تحدث في ذهنه * .

لأنه ينتبه * لما في الورقة من علامات أو رموز ، يفكر * ويفهم * ، يتخذ اتجاهات * ذهنياً معينا ، يتذكر * ، وهو تبعاً لذلك إما أن يهتم * أو يمل * وقد تستثار فيه غريزة الاستطلاع ، ويحتمل أن يضيق بغموض النص. ثم هو يحاول ويثابر حتى يحس في نهاية الأمر بالتعب ، وكى يتجنب الألم ينام ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل قد يحلم * ؛ وقد ينسى * حلمه بمجرد أن يستيقظ ؛ ومع ذلك يمكن انتشاله من اللاشعور * إذا نوم تنوعاً مغناطيسياً * .

كل هذه الأمور أحداث نفسانية وصفناها بلغة علم النفس الجارية . ولأننا في علم النفس نهتم إما بتصنف مثل هذه الأحداث ووصفها ، وإما بالبحث عن عللها كأن نفسر مثلاً لماذا تحدث هذه العملية الخاصة في هذا الوقت بالذات وعلى هذا النحو دون غيره .

وأول هذين الأمرين ، أعنى التصنيف ، يقوم به علم النفس التقليدي الأكاديمي وهو مفيد إذا مست الحاجة إليه ، ولكنه يفقد من أهميته ليقسح المجال للدراسة التكوينية * التي تبحث عن علل الظواهر النفسية . فالدراسة التكوينية هي التي تسعى إلى إلقاء ضوء على الظواهر التي تتناولها بدراسة أصلها وتاريخها ونموها وترقيتها . ذلك أننا إذ نتناول العقل على هذا النحو نجد أن أهمية التاريخ الماضي أعظم بكثير من أهميته في العمليات الفيزيكية ؛ والواقع إننا لا نفكر ولا نحس أو نفعل على نحو خالص أو تلقائي ، وذلك أن خاصية تفكيرنا * ووجداننا * وفعلنا * ترجع دوماً — أو على الأقل في جزء منها — إلى الأساليب التي سبق لنا أن فكرنا أو افعلنا أو فعلنا تبعاً لها .

(١) علم النفس التجريبي

علاقة علم النفس التجريبي بعلم النفس العام

نعت علم النفس التجريبي أحياناً بالسيكولوجيا « الجديدة » أو « العلمية » . واقد تكلموا عنه كما لو كان متميزاً مستقلاً عن علم النفس العام القديم الذى لم يكن فيه للتجربة موضع . وهذا فى الواقع خطأ بين إذ التجربة قديمة فى علم النفس قدم أرسطو . كما أن الإنتاج العلمى ممكن « حيث تحول الظروف دون التجربة فى الفلك والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى مثلاً . فيجب أن ننظر لعلم النفس التجريبي كأحد ضروب كثيرة تدرس بها المشاكل السيكلوجية حيث لأنها ليست جميعاً مما يمكن معالجته من الوجهة التجريبي . فبعيداً عن أن يكون علم النفس التجريبي مستقلاً ، نشأ كتهذيب لعلم النفس العام . فدراسة علم النفس العام أساسية للنجاح فى علم النفس التجريبي .

السيكولوجيا كعلم

نحن الآن فى موقف علينا أن ندرك معه أن إمكانية نسبة التعبيرات الفيزيقية (physical) للحالات الذهنية هو السبيل الوحيد لأن نضع السيكولوجيا فى مرتبة العلوم . والتعبيرات الفيزيقية ، إنما تحصل عن طريقين : الأول بملاحظة السلوك الخارجى للشخص ، والثانى بوصف الشخص لخبرته الداخلية (٢) ، أما عن الأول فلسنا فى حاجة لكثير إيضاح عما هو عليه إذ من الجلى أن السلوك الخارجى طريق للتعبير الفيزيقي . أما الثانى فقد يبدو غريباً لأول وهلة أن نقول إن الكائن حين يصف حالاته الذهنية فهو إنما يوجد منفذاً للتعبير الفيزيقي . ولكن هذا هو حقيقة الأمر التى بدونها يصبح علم النفس مستحيلاً . إذ لا يمكن لشخص من الوجهة السيكلوجية أن يلاحظ الحالات الذهنية لشخص آخر ، فهى ملك خاص بصاحبها على تقيض ما يبدو من الملك المشاع للأشياء فى العالم الفيزيقي . فحالما يقصد المرء إلى تسجيل حالاته الذهنية فانما يعبر عنها « فيزيقياً » . فقد يقول أو يكتب أى أنه يستخدم حركات فيزيقية واضحة وذات معنى لأفراد جنسه

أغراض علم النفس التجريبي

كثيراً ما استخدمت صعوبة النبوء التى شغلت اهتمامنا أخيراً لتقوية الزعم بأن علم النفس التجريبي شئ مستحيل . ولقد أكد أن الفرد الواحد يتغير فى الأوقات المختلفة ، وأن الأفراد يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً جداً تنفق معه إمكانية التعميم .

ولكن علم النفس التجريبي لا يقصر اهتمامه على المشا كل العامة وحدها كالتعبات الفارقة وتحديد مدى الانتباه وتعيين حدود الذاكرة :

(١) Ch. S. Myers. a Text-Book of Experimental Psychology. Cambridge University Press 1928 p.1, 4-5, 9.

مترجم هذا النص الأستاذ ابراهيم أبو غرة

(٢) انظر « شعور » فى باب التعريفات . (المترجم)

فله بجانب هذا . . . أن يبين كيف تتأثر خاصيات العقل في فرد بعوامل مختلفة ، وأن يبين مدى وعلة هذا الاختلاف في الأفراد المختلفين .

فصعوبات التنبؤ إذن لترفع أكثر مما تبخس من قيمة الاهتمام العلمى بهذا الموضوع . كما أن هناك بالمثل صعوبات هامة أو نافلة تعترض تنبؤنا عن الجو أو عن سير التطور حيث العوامل معقدة ومتغيرة كثيراً أيضاً ، على نحو لا نستطيع معه التنبؤ بسير الحوادث في يقين . فهي غاية كل علم إذن ومن ثم غاية علم النفس التجريبي أن يحلل ما أمكن العوامل التي قد تؤثر في الظاهرة وأن يحدد النتائج التي تلزم عنها ، متى وجدت ، هذه العوامل .

علم النفس برىء من . . . (١)

أيسر لنا أن ندل المبتدئ على ما ليس علم النفس من أن ندله على ما هو علم النفس . فكما يستحيل أن نقدم تعريفاً يبنياً للرياضة لشخص غريب عن المبادئ الأولية لعلاقات العدد ، كذلك يستحيل إيضاح طبيعة علم النفس للطالب العادى عند بدء دراسته له . . ومن أجل أن يكون المرء رأياً قاطعاً في ماهية علم النفس عليه أن يعرف جانباً منه . ومن لم يدرس هذا الموضوع تحت إرشاد حاذق ، ليس حقيقياً بأن يعرف علم النفس بالمعنى الدقيق .

إنه لحق من وجه أن هناك قدراً كبيراً من المعلومات تنعت عند العامة بالنفسية ، كما أنه حق من وجه ثأن أن كل شخص إنما يعرف أشياء هي من صميم علم النفس ، وإن لم يكن يعلم أنها منه ، وهذان الضربان من الخلط وسوء الفهم يشاركان في صعوبة المهمة عند الشروع في الدراسة العلمية لهذا الموضوع . فمن البين إذن أن ما نقوله بشكل عام عن علم النفس يجب أن يكون موجزاً وأن معناه — بالتالى — يحتمل أن يتضح للطالب حين يعود إليه بعد إكمال هذا الكتاب .

ويمحسن أن نبدأ بتحذير الطالب من بعض الأخطاء الشائعة في فهم السيكولوجيا . فمن الوجه الأول يبين أن السيكولوجيا ليست « دراسة النفس » ، إلا أنها ليست بالانفسيية بمعنى إقصاء النفس عن ميدانها . فمن المعروف أن قدراً ملحوظاً من المناقشات السيكولوجية يجرى دون ذكر أى نوع من أنواع النفوس (٢) . ولكن ليس من الممكن في التحليل العلمى الدقيق أن تنجب الإشارة إلى شئ يمكن أن يسمى « نفساً » في حقيقته على الرغم من أنها ليست بأية حال النفس التي قال بها اليونان وحمّلها عنهم التصور الشعبي ، وعلى الرغم من استحالة دراستها بالفعل .

والسيكولوجيا من وجه ثان تتعلق قليلاً بما يسمى بالعلوم الخفية كالتخاطر * والاستشفاف * وأنواع الدجل التي تستخدم غالباً وبنجاح في سلب الأحمق أمواله .

(١) Knight Dunlap. A system of Psychology. New York, Charles

Scribner's Sons, 1912. p. 1 - 4. مترجم هذا النص الأستاذ إبراهيم أبو غرّة

(٢) كالتقسيم الثلاثى للنفوس في الفلسفة اليونانية القديمة (نباتية — حيوانية — ناطقة) المترجم

ولكن إن لم نؤكد فلن تنكر أنه قد يكون في صلب هذه الكتلة من التدجيل ، بعض العناصر ذات الأهمية السيكولوجية، وأن البحث في هذه المسائل يتعلق في الواقع لا بالسيكولوجيا مباشرة بل ببحوث تحضير الأرواح (١)

واللفظ « سيكولوجى » من وجه ثالث يفيد في المعنى الشعبي نوعا من الرقة والظرف في التمييز والتكيف . فمثلا تعنى اللحظة السيكولوجية وقتا مناسباً لفعل معين تكون معه اللحظة السابقة له جد مبكرة واللحظة اللاحقة جد متأخرة . .

وإن أى تحليل أو وصف دقيق لخصائص ونواحي نشاط الكائنات الإنسانية أو أى تظاهر بالدقة يسمى بالسيكولوجى ومن أجل هذا قالوا بالروايات السيكولوجية وما إليها . . والواقع إذ تقر السيكولوجيا — تواضعا — بمعرفة التحليل وضبطه ، عليها أن تنكر أى دعوى أخرى حيث لا يمكن أن تعتبر العلم الوحيد الذى يحلل النشاط والتجربة الإنسانية . ففي هذا المعنى الشائع نرى علم وظائف الأعضاء والمنطق والأخلاق أكثر سيكولوجية من علم النفس .

وأخيراً ليس علم النفس دراسة لوظائف الجهاز العصبي . ففي الواقع أن جميع النقط الأساسية في علم النفس يمكن أن تشرح على ما هي عليه من نحو بدون الرجوع إلى الجهاز العصبي أو بالإشارة إلى فكرة غير دقيقة بالغة حد البخف . غير أنه من الحق أن المبادئ والحقائق السيكولوجية يمكن أن توصف في يسر وبكشف عنها في سهولة بالرجوع إلى تركيب الدماغ والأعصاب ونواحي نشاطها على النحو الذى يفهمه من توصف له أو من يبحث عنها . وإنما نعتقد أنه كلما اتفقت النظرة الفيزيولوجية مع واقع الظواهر البنائية والوظيفية ، سهل تقدم علم النفس .

اقرأ في العدد القادم

تمهيد لدراسة نفسية المراهق في مصر	للمدكتور يوسف مراد
دراسات إكلينيكية في الطب النفسى الجسمى	للمدكتور مصطفى زبور
الأسس النفسية للعمل الإنسانى	للمؤستاذ أبو مبره الشافعى
نفسية الشعب المصرى من أغانيه	للمؤستاذ محمد محمود الصياد

(١) يجب التمييز الدقيق بين « روحانى » psychic ، psychical وبين سيكولوجى أو نفسانى psychological . ولأنه لمن المؤسف أن أحد اللفظين الأولين لم يستخدم فيما يدل عليه علم النفس .